صالح

أرأيت الوارث السفيه ، الذى يغرق فى ميراث لم يتعب فيه ، ولم يجمعه من قطرات عرقه ؟ ..

وقد اجتمع عليه شبابه ، وفراغ وقته ، وكثرة ماله ؟ .

فيفسد خُلُقه ، ويَعوَجُّ سيره ، وتسوءُ حاله ؟

إن الشباب والفراغ والجِدَة مَفسدةٌ للمـرءِ أىَّ مفسدة

* * *

أرأيته حين لا يعتبر بما نُكِبَ به آباؤه وأجداده ؟ .

أرأيته حين يغضب إذا نصحه أحد أقاربه ؟ أو عميد أسرته ؟ .

أرأيته حين يرفض النصيحة ، ويلوى وجهه ، ويُطيل لسانه ، ثم يدير ظهره ، ثم يُولِّى فى صحبة الشيطان ، وأعوان الشيطان ، حتى يُرْدُوه فى الهاوية ؟

* * *

كذلك كانت ثمود ، قوم صالح ! .

ورثوا آباءَهم قوم عاد ، بعد أن أهلكهم الله ، بتلك الريح الصرصر العاتية ؛ عصفت بهم ، سبع ليال ، وثمانية أيام حسومًا ، فأصبحوا كأنهم أعجاز نخل خاوية .

ولم تتعظ ثمود بما جرى لعاد ، يوم خلفَوْهم فى الأرض ، واستعمرهم الله فيها ، فاستمرءَوا النعمة ، ولم يشكروا عليها ، وبطروا بها ، وعتوا عُتُوًّا كبيرًا .

وعاثوا فى الأرض فسادًا ، وعبدوا الأوثان والأصنام عنادًا .

* * *

فأرسل الله إلى ثمود ، أخاهم صالحًا ، يدعوهم ليعبدوا الله ويتقوه ، وليطيعوا صالحًا فيما يدعوهم إليه ، وألا يتبعوا الكافرين المسرفين ، الذين يسرفون على أنفسهم فى شهواتهم ، ومجانبة الدين الحق ، والإغراق فى الإشراك بالله ، الذى يؤدى بهم إلى جهنم .

قال لهم : يا قوم اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴾ (هود الآية ٢٦)

يا قوم :

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾

(الشعراء الآية ١٤٦/١٥٢)

فاستشاطوا غضبا وحقدًا ، وكُبر عليهم أن يكون صالح صاحب دعوة إصلاح ، ورسول دين جديد فيهم .

واستثارهم أن يكون صالح ، هو الذى يداوى أمراض مجتمعهم

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

(هود الآية ٦٢)

وغاظهم أن يسارع الفقراءُ والمساكين إلى دينه فيتبعوه ، ويؤمنوا به ، ويوحِّدوا الله ، ويَنفُضوا عنهم لباس الشرك ، وعبادة الأوثان .

فقالوا : يا صالح ،

﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾

(النمل الآية ٤٧)

أنتم مشئومون ، شأمتمونا معكم ، فتوالت علينا المصائب ، من يوم أن ظهرتم بدعوتكم هذه .

وأخذتهم الكبرياءُ والأنفة ، أن يقودهم إلى الهدى ، والدين الجديد ، واحدٌ منهم ، ليس أشرفَهم ، ولا سيِّدَهم .

﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾

(القمر الآيتان ٢٤/٢٥)

* * *

وبلبلت دعوة صالح أفكارهم ، وحلَّتْ وحدتهم وفرقت جمعهم ، فأصبحوا شيعًا وأحزابًا ، وكلهم فاسدٌ ومُفسد ، وخاذل ومُخَذِّل ،

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾

(النمل الآية ٤٨)

* * *

وائتمروا بصالح ، ودبروا له المكيدة ، ورسموا الخطة ، أن يتجمعوا عليه ، ويقتلوه ، حتى إذا ما خلصوا منه ، قالوا للمطالب بدمه ، وهم يحلفون له ، إنهم ما شاهدوا مقتله ، ليبرءوا من دمه ، وإن كانوا هم القتلة .

والقاتل غير الشاهد ، وهم بِظَنِّهم أنهم بذلك يصدقون .

* * *

ثم أرجئوا القتل ، إلى ما بعد أن يثبتوا كذبه فى دعواه ، أو عجزه أن يثبت صدق دين الله .

وقالوا : يا صالح ، ائتنا بآية واضحة ، ومعجزة بينة ، وقال لهم :

﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

(هود الآية ٦٤)

لها يوم تشرب فيه وحدها ، ولكم يوم آخر تشربون فيه وحدكم ، وإياكم أن تُغيِرُوا عليها فى يومها .

وما كادوا يعرفون أنها ناقة ثمود ، وأنها آية الله وهى التى يتحداهم بها فى صدق رسالته ، وأنها عماد حجته ، حتى جَرُءُوا عليها ، وتصدَّوا لها ، وضاقوا ذرعًا بها .

وقالوا : هذه الناقة نذيرُ شرٍّ ، ومَثَارُ وَعِيدنا ، لقد هان أمرنا ، حتى أصبحنا نخشى ناقة تسير فينا ، وتقاسمنا ماءَنا وشرابنا .

وكيف نهاب ناقة ، ومتى كان للنوق كرامة ؟

وعز عليهم أن يساموا سَوْمَ الناقة والجمل ، فتصايحوا لكرامتهم ، وتنادَوْا ، وأجمعوا أمرهم ، وهم يمكرون .

* * *

وجاءَ رجلٌ أحمق منهم ، واستل خِنجرهُ ، وطعن الناقة وعقرها . وأتى عليها .

* * *

فغضب صالح ، وربُّ صالح ، وحقتْ عليهم كلمة العذاب . فكانت الرجفة الراجفة ، زعزعت القلوب الواجفة ، والأبصار الخاشعة ، وقالوا : أإنا لمردودون فى الحافرة ؟

واهتزت جنبات الأرض ، ودمَّرتْ كل من عليها ، وصيحة من صيحات جبريل ، تزلزل الجبال ، وتقطع الأوْصال وتطُوِّح بالأمانى والآمال !

* * *

فأخذتهم الرَّجفة ، وهم نائمون ، وحتى الذين استيقظوا فاجأهم العذاب ، فخرُّوا ساجدين ، خوفًا واضطرابًا ، وماتوا وَهم يجلسون القرفصاءَ .

* * *

وحين اشتد عليهم الكرب ، وباغتتهم المصائب ، خرُّوا على وجوههم ، حتى لا يَروْا ما هو نازل بهم ،

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾

(هود الآيتان ٦٧/٦٨)

* * *